الإسراف نقمة على البيئة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ,واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز الجبار الرازق الوهاب , الباري الخالق جل جلاله , واشهد ان محمدا رسول الله عبده ورسوله صفيه من خلقه وحبيبه الذي بلغ الرسالة وادى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ودعل البشرية الى الدين القويم **(ما فرطنا في الكتاب من شيء)** افلح وفاز من تمسك بكتاب الله وسنته الشريفة r .

أما بعد:

فيا أيها الإخوة المؤمنون المسلمون:

لقد أسرف الإنسان في استخدام البيئة واستغلالها للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب، ولم يفتأ يلهث للوصول إلى هدفها بأسهل طريق وأقل كلفة غير ناظر في العواقب، وضارباً عرض الحائط بتعاليم الدين ومقتضيات الأخلاق. وقد أوجد الإسلام ضوابط لذلك منذ أن وُجد، فما هو موقف الإسلام من استغلال البيئة من الآية القرآنية الشريفة **(والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان)**. إذن يؤكد الله على مفهوم مهم ينظم الكون والحياة والإنسان، وهذا المفهوم هو الميزان، وأي إخلال في هذا الميزان سواء في الزيادة أو النقصان يؤدي إلى أسوأ العواقب، وأمر الله الإنسان أن يحافظ على الميزان أو التوازن في جميع ما يأتي وما يدع، ولكل شيء حدودٌ وطاقة، فالمنظومةُ البيئية خلفت بحالة توازن وأيُ خلل في أحد عناصرها يؤدي إلى الخلل في العناصر الأخرى، فإذا حدث خللٌ في الماء في إحدى المنظومات أثر ذلك في الحيوان وفي النبات وفي الإنسان فهي كالجسد الواحد يكمل بعضه بعضاً ويعتمد بعضه على بعض، ونستطيع أن نتمثل بقوله (**[مثلها كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى]**. لذلك ينبغي على الإنسان أن يتعامل مع عناصر المنظومة البيئية بالقدر الذي لا يُجهدها ولا يستنزفها ولا يتجاوز خطوطاً لا رجعة فيها، فلا يسرف في استخدام المياه ولا يُجهد الأرض بالاستعمال ولا يسرف في قتل الحيوان حتى يقضي على الأنواع، فهناك حدودٌ عليه التقيدُ بها حتى يُبقي على البيئة ويجددها على الدوام، فالتوازن مطلوب والميزان حساس فلا خسران ولا تطفيف .وإذا أمرنا الإسلام بالحفاظ على التوازن بين عناصر البيئة فقد أمرنا أن لا نفسد الموارد وأن لا نلوث عناصر المنظومة البيئية، فتلوث الهواء يصيب الإنسان والحيوان كما أن فساد المياه ينعكس على النبات والحيوان والإنسان ـــ لذلك قال الله تعالى **(قد علم كلُ أُناس مشربَهَم، فكلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)** (وكذلك فالإسراف ممقوت ومنهي عنه، فالإسراف في الماء يؤدي إلى الهدر، والإسراف في الطعام يؤدي إلى التخمة والإسراف في قطع الشجر يؤدي إلى التعرية والإسراف في استخراج الموارد يؤدي إلى استنزافها، وهذا كله ينزل الأذى والضرر في البيئة والناس، لذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن الإسراف فقال **(كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)**

أكدت الشريعة الإسلامية على أهمية المحافظة على الموارد من الإسراف والاستنزاف مع ضمان حق الأجيال القادمة فيها والمحافظة عليها من التلوث فقال الله عز وجل (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين).

وقال الرسول وهو ينصح شخصاً يتوضأ بعدم الإسراف فقال المتوضئ أفي الوضوء إسراف قال (نعم وان كنت على نهر جاري) كما منع الإسلام من تلويث الماء الراكد والجاري بالبراز والبول.

الإسراف والتبذير في الموارد يزيد في تضخم مشكلة تدهور البيئة، لذلك وضع الإسلام قواعد تمنع أي هدر في أي مورد، قال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً}وقال: {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} وقال: {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين}

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعدٍ وهو يتوضأ: ((ما هذا السرف يا سعد؟))، فقال أفي الوضوء سرف؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((نعم، وإن كنت على نهر جار))

وقال صلى الله عليه وسلم لأعرابي سأله عن الوضوء، فأراه صلى الله عليه وسلم الوضوء ثلاثاً ثم قال: ((هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى أو ظلم))

فإن كان في الوضوء سرف وهو مدخل للعبادة، فكيف بالإسراف والتبذير الذي يتعدى حدود الحلال، والذي يُنَفَّذ بشكل واسع عند كثير من الأمم على مستوى الأفراد والجماعات والدول ؟!

- ولا تسرفوا: هناك من المفسرين من قال في الأكل وهناك من قال إن الأمر عام في كل شيء وهذا أقرب للصواب. ولنذكر في هذا السياق بعض مظاهر الإسراف في النظام الزراعي
- الاسراف في الأكل: وما ينجر عنه من أمراض وتبلد الطبع.
- الإسراف في الأسمدة واستعمالها: لأن ذلك يحدث اضطرابات فسيولوجية للنبتة ويتسبب في تلوث البيئة والمياه مثل مادة النيترات التي أصبحت تـــهدد المياه الباطنية والسطحية.
- الإسراف في استعمال الأدوية والمبيدات: تسبب في تلوث التربة والمياه والهواء بهذه السموم القاتلة. كما ان الثمار صارت مسمومة بهذه المواد مما أدى إلى ظهور العديد من العوارض والأمراض نتيجة هذا الاستعمال المفرط للمبيدات. كما إن الإسراف في استعمال هذه المواد أدى إلى نقص المناعة الذاتية للنبات واكتساب الحشرات الضارة مناعة قوية ضد بعض المبيدات .
- الإسراف في السقي: يؤدي إلى تعفن الجذور والتربة وتؤخر موعد النضج وانتشار الأوبئة والحشرات الضارة. وهنا أشير إلى تطور وسائل الري التي تمكن من الاقتصاد في المياه مثل الري قطرة قطرة الذي يوفر نصف كمية المياه المستعملة للري.
- الإسراف في استعمال الآلات الميكانيكية والآليات الثقيلة: لأن ذلك يسبب ضغط التربة خاصة عندما تكون مبللة. ونذكر أيضا أن كثرة الحرث والإسراف فيه يؤثر على قوام التربة ويعرضها لكثر الانجراف ويكوّن طبقة من التربة غير نافذة للماء تؤثر سلبا على نمو النبات.
- الإسراف في الاهتمام بكمية الإنتاج على حساب نوعية المنتوج: وأقصد هنا المحاصيل المعدّلة جينياً وما يمكن أن تسببه من كوارث بيئية وصحية. فقد ثبت في علم الجينات أن تطوير الجين المسؤول على كمية الانتاج يؤثر سلبا على جينات المقاومة للحشرات أو نقص المياه أو الملوحة.

إذن في هذه الدعوة من المشرّع لعدم الإسراف رؤية جديدة لزراعة متطورة ومتوازنة في نفس الوقت.

الخطبة الثانية

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ,واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز الجبـــار الرازق الوهاب , الباري الخالق جل جلاله , واشهد ان محمدا رسول الله عبده ورسوله صفيه من خلقه وحبيبه الذي بلغ الرسالة وادى الامانة ونصح الامة وكشف الغمة ودعل البشرية الى الدين القويم (**مـــا فرطنـــا فـــي الكتاب من شيء**) افلح وفاز من تمسك بكتاب الله وسنته الشريفة r.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة المؤمنون المسلمون:

يقف الإسلام ضد الإسراف وإهدار الموارد الطبيعية، ويدعو الإنسان إلى الاعتدال والتزام الطريق الوسط في الإنفاق والاستهلاك· ولما كانت النفايات ذات آثار ضارة على البيئة إذا تُركت فيها من دون معالجة لها، فإن اتباع أي طريقة للاستفادة منها يعد أمراً محموداً·

وإذا عدنا إلى تراثنا الإسلامي، سنجد إشارات كثيرة إلى إعادة استخدام الموارد المختلفة مادام لن ينتج من ذلك ضرر، بل **إن بعض الفقهاء أجاز غسل أوراق المصحف التي خلقت وتعذرت قراءتها**، فقد جاء في حاشية رد المحتار (وفي الذخيرة: المصحف إذا صار خلقاً، وتعذر القراءة منه لا يحرق بالنار، ولا يكره دفنه، وإن شاء غسله بالماء.

وفي حاشية فتح الله المعين على شرح الكنز:

(إذا صار المصحف خلقاً بحيث لا يقرأ يجعل في خريطة ويدفن كالمسلم ·وقال في غيرها: يغسل في ماء جار

وقال الرملي: ابن حجر العسقلاني فضل الغسل على الإحراق، فقال :وهذا الحكم ــ أي الإحراق ــ هو الذي وقع في ذلك الوقت.

وقال :وفي رواية أبي قلابة: (فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم<، والمحو أعم أن يكون بالغسل أم التحريق ···وقد جزم عياض بأنهم غسلوها بالماء ثم أحرقوها.

ويرى الدكتور محمد سليمان النور أنه في حال المصاحف التي تعرضت أوراقها للتلف أو أصبحت بحال لا يقرأ فيها، فإن الحل الأفضل هو غسل الأحبار المكتوب بها القرآن الكريم وإزالتها وفصلها عن الورق، ثم الاستفادة من الورق بعد ذلك بإعادة تصنيعه، ومما يدل على أفضلية ذلك ما يلي:

أولاً: أن الغسل أمر متعارف عليه عند المسلمين في تحفيظ الصبيان القرآن، حيث يكتب في اللوح ويمحى بعد حفظه ويكتب للطالب غيره.

ثانياً: أن غسل الكتابة من الورق وإزالة حبرها تمكن من الاستفادة من الورق بعد غسله بدلاً من إتلافه بالحرق أو الدفن، ولا سيما قد وجد في هذا الوقت مصانع متخصصة في الاستفادة من الورق بعد إزالة ما عليه من كتابة وأحبار· ومن المعلوم أن من مقاصد الشريعة الغراء حفظ الأموال وعدم إهدارها وإضاعتها، فقد روى الإمام البخاري ــ يرحمه الله ــ في صحيحه عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال :إن الله كره لكم ثلاثاً :قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال حرواه البخاري·

ثالثاً: إن ما تقوم به المصانع ــ المتخصصة في إعادة تصنيع الورق ــ بعد فصل الكتابة والأحبار عنه ــ من شراء للأوراق التالفة يشجع الناس على حفظ الأوراق التالفة ــ سواء أكانت أوراق المصحف أم غيرها من الأوراق المشتملة على ذكر الله ــ وتجميعها لبيعها للمصانع، ويقلل من إلقاء الناس لها في القمامة مما يساعد على حفظها وعدم امتهانها·

رابعاً: من القواعد الفقهية أنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان ·حوفي هذا الزمن فإن غسل ما على الورق

من كتابة وأحبار ثم إعادة تصنيعه هو أسلم الوسائل للتخلص من الأوراق التالفة، وذلك لكثرة استعمال الورق في هذا الوقت.

وفيما يتعلق بالأوراق المشتملة على آيات أو أحاديث أو أسماء الله تعالى الحسنى، كالكتب والصحف والمجلات وأوراق إجابات الطلاب، فقد ذهب بعض أهل العلم إلى التخيير بين الغسل والإحراق مثل العز بن عبد السلام، قال أبو يحيى زكريا الأنصاري: وقد قال ابن عبد السلام :من وجد ورقة فيها البسملة ونحوها لا يجعلها في شق ولا غيره لأنها قد تسقط فتوطأ، وطريقه أن يغسلها بالماء أو يحرقها بالنار صيانة لاسم الله تعالى عن تعريضه للامتهان.

وإذا كانت الأوراق المشتملة على ذكر الله لا تثبت لها حرمة أوراق المصحف فما جاز فعله في التخلص من أوراق المصحف التالفة يجوز فعله في الأوراق المشتملة على ذكر الله من باب أولى، والذي يترجح في الأوراق المشتملة على ذكر الله تعالى: أن الأفضل غسلها وإزالة ما فيها من كتابة وحبر ثم الاستفادة منها بإعادة تصنيعها، أما الأوراق التي ليست مشتملة على ذكر الله تعالى فتجوز الاستفادة منها سواء أُمُحِيَ ما عليها من الكتابة أم لم يُمح، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، ولأنه ليس في هذه الأوراق ما يمنع الاستفادة منها، والله أعلم.

الاستفادة من المخلفات والنفايات في التراث الإسلامي

إن المتصفح لكتب التراث الإسلامي سيجد فيها إشارات كثيرة إلى قيام المسلمين بالاستفادة من المخلفات والنفايات، وهو الأمر الذي لا يجعلنا نتفق مع القائلين: إن إعادة استخدام النفايات وتدويرها هي إحدى ثمرات الوعي البيئي في عصرنا هذا، فهذا الأمر كان شائعاً في الأمم السابقة، ثم جاءت الحضارة الحديثة بترفها وأنماط الاستهلاك الجديدة، فزادت النفايات، وأنف الناس من إعادة استخدامها وبخاصة في البلدان المتقدمة التي أنعم الله عليها بوسائل الرخاء والمتع الدنيوية.

ويحفل كتاب (البخلاء) للجاحظ بقصص كثيرة حول ذلك الموضوع. وأسوق هنا بعض القصص التي لا تخلو من طرافة، وإن كانت في الوقت نفسه تبين مدى حرص الأقدمين على الاستفادة من النفايات بشتى الوسائل. يقول الجاحظ:

1ـــ وحكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام عن جاره المروزي... قال: ورآني مرة مصصت قصب سكر، فجمعت ما مصصت ماءه لأرمي به. فقال: إن كنت لا تنور لك ولا عيال، فهبه لمن له تنور وعليه عيال. وإياك أن تعوِّد نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك، فإنك لا تدري ما يأتيك من العيال) .

2ـــ اندفع شيخ فقال: لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية. قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال: أهدي إليها ابن عم لها أضحية، فرأيتها كئيبة حزينة، مفكرة مطرقة. فقلت لها: مالك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة، وليس لي قيِّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي، وقد ذهب الذين كانوا يدبّرون أي يعرفون استعمال كل جزء من الأضحية الاستعمال اللائق به ويقومون بحقه، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها. وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لا محالة. ولست أخاف من تضييع القليل، إلا أنه يجرّ تضييع الكثير!

الإسلام منع القاء الفضلات الإنسانية حيث يمكن ان تشكل أذى،وحث على النظافة على أساس (ان اللّه طيب يحب الطيب، نظيفـيحب،النظافة) كما في حديث علي بن ابي طالب الى،ثقيف التي كانت تعتدي علىالطريق قرب الفرات.

واذا كان هذا لا يدل على ضرورة جمع القمامة من البيوت، فان،السبب ربما يعود الى انها لم تكن تشكل خطرا حينذاك، وقد كنا نرى الناس في القرى يستخدمون القمامة سمادا تستفيد منه،الارض فلم تكن مشكلة، ولم تصبح كذلك الا بعد ان سادت،أساليبالاستهلاك الحديثة.

أما مسالة النفايات السامة والخطرة فيمكن أن تطبق عليها سنة الرسول القاضية بمنع (القاء السم في بلاد العدو) فكيف بها، في بلاد الملقي؟ وفي النهاية، فان النشاطات المنتجة للنفايات من اي صنف كانت، فان قاعدة (الغرم بالغنم) تقضي بان يتحمل أصحاب هذه النشاطات تكاليف معالجة نفاياتها.
ويبقى المتحكم في المسالة، في نهاية المطاف، قاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المنافع).